﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: 72 - 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

محاسنُ الأخلاقِ وفضائلُ الآدابِ من جنسِ التّكليفِ بالشّريعة

لمّا بيّنَ النّظمُ الجليلُ للمؤمنين محاسنَ الأخلاق وفضائلَ الأعمال، وأدّبَهم بأحسنِ الآداب؛ أتبعَ ذلك ببيانِ أنّ التّكليفَ الذي أمر الله تعالى به الإنسانَ أمرٌ عظيمُ الخطر جليلُ الخطْب؛ فقال عزّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1]، ومنَ المناسبة أنّه لمّا بيَّن عِظَم شأنِ طاعةِ الله ورسولِه بما ذَكَرَ من سوء جزاءِ مَن يَعصيهما، وبما ذَكَرَ من حسن مآلِ مَن أطاعهما وما له بتلك الطّاعة منَ الفوزِ العظيم؛ أتْبعَه ببيانِ عِظَمِ التَّكاليفِ الشَّرعيةِ التي هي الأمانةُ التي تحمّلها الإنسانُ؛ فكان ظلومًا جهولًا[2]، ولمّا أجمل النّظمُ الجليلُ بكون الإنسان ظلومًا جهولًا أتْبعَه بالتّفصيل؛ فذكر أنّ النّاس صنفان: أحدُهما مُضيِّعٌ للأمانة والآخرُ مُراعٍ لها، فقال تعالى مبيّنًا جزاءَ كلِّ فريق منهما: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 187.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 130 - 131.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَرَضْنَا﴾: (عرض) أصله العرضُ الذي هو خلاف الطّولَ، وعَرْضُ الجُنْدِ: أنْ تُمِرَّهُمْ عَلَيْكَ، وذَلِكَ كَأَنَّكَ نَظَرْتَ إلى العارِضِ مِنْ حالِهِمْ، وعَرَضَ الفَرَسُ في عَدْوِهِ عَرْضًا، كَأَنَّهُ يُرِي النّاظِرَ عَرْضَهُ[1]، وعَرَضَ الشَّيْءَ لَهُ عَرْضًا: أظْهَرَه لَهُ، وأبْرَزَهُ إلَيْه، وأراهُ إيّاهُ، ومِنْه قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ [الكهف: 10]؛ أي: أبرزناها وجعلناها بحيث يرونها[2]، وهو معنى ﴿عَرَضْنَا﴾ في الآية.

2) ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾: (أمن) أصلُ الأمْن: طمأنينةُ النَّفس وزَوالُ الخَوفِ، والأمانَةُ اسمٌ لِما يُؤمَّن عليه الإنسانُ، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: 27]، أي: ما ائتُمِنْتم عليه، وقولُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3]، والأمانةُ ثقةٌ في الباطن إذا وُجِدَت؛ وُجِدَ الأمنُ، فالأمين والمؤمن أوصافٌ تورثُ الثِّقةَ والطُّمأنينةَ والأمنَ[4]، والأمانَةُ ضِدُّ الخيانَةِ، ومعناها سُكونُ القَلْبِ[5]، والمُرادُ به في الآية الكريمة خلافُ الخيانة، وهي الفرائضُ التي شرّعها اللّه تعالى لعباده[6].

3) ﴿فَأَبَيْنَ﴾: (أبي/ أبى) أصلٌ يدلُّ على الامْتِناعِ، والإباءُ: أنْ تَعْرِضَ على الرَّجُلِ الشَّيْءَ فَيَأْبَى قَبولَهُ[7]، والإباءُ مَصْدَرُ قَوْلِكَ أبَى فُلانٌ يَأْبَى، أي: امْتَنَعَ، وكَرِهَ[8]، وعند الرّاغب: هو شدّةُ الامتناع، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناعٍ إباءً[9]، والمقصودُ بالإباءِ في الآيةِ: الامتِناعُ عنِ الفِعْل، فلم تحتملْ تلك المخلوقاتُ الأمانةَ[10].

4) ﴿وَأَشْفَقْنَ﴾: (شفق) أصْلٌ يَدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيْءِ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: أشْفَقْتُ مِنَ الأمْرِ، إذا رَقَقْتَ وحاذَرْتَ[11]، وإذا قُلْتَ: أشْفَقْتُ مِنْهُ، فَإنَّما تَعْني

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (عرض).
(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (أمن)، والمناوي، التّوقيف، ص: 63.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أمن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(6) الزّجاج، معاني القرآن: 4/ 238.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبي).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (أبي).
(9) الرّاغب، المفردات: (أبى).
(10) الزجاج، معاني القرآن: 4/ 238.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفق).

حذِرْتَه، والشَّفَقُ الخَوْفُ، تَقولُ: أنا مُشْفِق عَلَيْكَ، أيْ: أخاف، وأشْفَق مِنْهُ جَزِع[1]، والإشْفاقُ: عنايةٌ مُختلطةٌ بخوفٍ، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء: 49]، فإذا عُدّي بـ(مِن)؛ فمعنى الخوف فيه أظهرُ، وإذا عُدّي بـ(في)؛ فمعنى العناية فيه أظهرُ، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور: 26]، وقال جلّ شأنُه: ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: 18][2]، والمُرادُ به في الآية الكريمة: الخوفُ منَ الخيانة[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قابليّةُ الإنسانِ للتّكليف بالشّريعة وقبولُه بها دونَ المخلوقات

يخبرُ النّظمُ الكريمُ أنّ اللّه تعالى قد عرض طاعتَه وفرائضَه والتّكليفَ بالشّريعة على السّماوات والأرض والجبال على أنّها إن أحسنتْ أُثيبت وجوزيت، وإن ضيّعتْ عوقبتْ، فأبت حمْلَها خوفًا أن لا تقوم بالواجب عليها، وحمَلها الإنسانُ والتزم بها على ضَعفِه، إنّه كان شديدَ الظّلم والجهل لنفسه[4]، ولتكون عاقبةُ تحمّلِ تلك الأمانة أن يعذّبَ اللّه الجليل المنافقين والمنافقات وهمُ الذين يُظهرون الإسلامَ ويُخفون الكفرَ، والمشركين والمشركات وهمُ الذين اتّخذوا من دونه شركاءَ، وأن يتوب اللّه على المؤمنين والمؤمنات بسَتْر ذنوبِهم وتركِ عقابهم، وكان اللّه غفورًا للتّائبين من عباده، رحيمًا بهم فيقبلُ توبتَهم ولا يعذّبُهم بعد توبتهم منها[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾:

تقريرُ عَظَمَةِ الفوزِ بتقريرِ عِظَمِ التّكليفِ والأمانةِ

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شفق).
(2) الرّاغب، المفردات: (شفق).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 49.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 336، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 427.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 343، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 427.

﴿ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾؛ لأنّها مُستأنَفةٌ تقريريًّا؛ إذ قررّ الوعدَ بالفوز العظيم لمَن أطاع الله تعالى والنّبيَّ ﷺ، وذلك ببيان عِظم الطّاعة التي هي الأمانةُ التي كلّفَ بها الإنسانَ[1]، ويصلحُ أن يكون استئنافًا ابتدائيًّا، والغرضُ منه الإنباءُ عن سنّةِ الله تعالى في تكوين العالم وما فيه، وواجبِ الإنسان فيه، ليراقبَ النّاسُ سلوكَهم مع الله تعالى، ويُحْسنوا في تعاملاتهم فيما بينهم[2].

غرضُ توكيدِ الخبر وتعظيمِه:

نبأُ الأمانةِ وعرضِها تحقُّه العَظَمةُ من كلّ طرف

أكّدَ النّظمُ الجليلُ الخبرَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ بحرف التّأكيد للاهتمام بالخبر ولغرابة مضمونه، فقد يُنكرُه السّامع، فنزّلَه منزلةَ الخبر الذي يُنكرُ فيلزمُ تأكيدُه؛ دفعًا للإنكار[3]، وجاء الخطاب بضمير التّعظيم تعظيمًا لمضمون السّياق، وتنبيهًا على عِظم الأمانة، فالله تعالى كاملُ العَظَمَة والجلال هو الذي عرض تلكُمُ الأمانةَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في عَرْض الأمانةِ:

الأمانةُ ثقيلةٌ عظيمةٌ لا تُطيقُ حمْلَها أعظمُ المخلوقات

أوقعَ النّظمُ الجليلُ عرضَ الأمانة على السّماوات والأرض والجبال في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ على طريقة المجاز التّمثيليّ[4]، فهو استعارةٌ تمثيليّةٌ، فقد شبّه حالةَ صرفِ الأمانة عنِ السّماوات والأرض والجبال وتكليفِ الإنسان بها بحالة عرضِ شيءٍ على أُناسٍ فيرفضُه بعضُهم ويقبلُه واحدٌ منهم، والقرينةُ في هذه الاستعارة حاليةٌ وهي أنّ العرضَ والإباءَ بالسّماوات والأرض والجبال لا يقعُ؛ لأنّها غيرُ مُدركةٍ، وهي ليست قادرةً على الاختيار والرّفض، فالأفعال: عرضْنا، فأبَيْن،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 240.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 124.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 186.

يحملْنَها، وأشفقن منها، وحملُها هي أجزاءُ للتّمثيل، وفائدةُ هذه الاستعارة تهويلُ شأن الأمانة وتعظيمُها[1]، وفي بيان ذلك قال أبو السّعود: "والمَعنى أنَّ تلك الأمانةَ في عظمِ الشَّأنِ بحيثُ لو كُلِّفت هاتيكَ الأجرامُ العظامُ التي هي مَثَلٌ في القوَّةِ والشِّدَّةِ مراعاتَها وكانتْ ذاتَ شُعورٍ وإدراكٍ لأبَيْن قَبولَها وأشفقنَ منها ولكنْ صرفُ الكلامِ عن سَنَنِه بتصويرِ المفروضِ بصورةِ المحقّقِ رَوْمًا لزيادةِ تحقيقِ المعنى المقصودِ بالتَّمثيلِ وتوضيحِه"[2].

نكتةُ إسنادِ العَرض إلى ضمير العَظَمَة:

عــرضُ الأمـانـةِ واقــعٌ بـما لله تعالى من عَظَمَةٍ وجلالٍ

أسندَ النّظمُ الجليلُ العرضَ إلى ضمير التّعظيم في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ للدّلالةِ على أنّ اللّه تعالى عرض تلك الأمانةَ بما له منَ العظَمةِ والجلال، والمُرادُ تعظيمُ شأن الأمانة وعرضها.

معنَى ﴿عَلَى﴾ في القيد ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

عــرضُ الأمـانـةِ مَكينةٌ بالوجوبِ على المُخاطَب به

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ وهو دالٌّ على الاستعلاء؛ وذلك للدّلالة على تمكّن ذلك العرض، وأنّه عرضٌ يلزمُ منه الوجوبُ بالإيفاء بما تقتضي الأمانةُ.

معنَى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولطيفةُ جمْعِها:

الإحالةُ الذّهنيّةُ على السّماوات كـلِّـهـا لـحـمْـلِ الأمانة

عرّفَ النّظمُ الجليلُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ وهي هنا دالّةٌ على العهد الذّهنيِّ، فإنّ السّماواتِ قد تواتر ذِكْرُها في القرآن الكريم، فالإحالةُ عليها ذهنيّةٌ؛ لكونها حاضرةً في الأذهان، والغرضُ من تعريفها الدّلالةُ على أنّ المُرادَ حصولُ العرض على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 125 - 126.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.

السّماوات عينِها لا على أهلها[1]، تحقيقًا للاستعارة والتّمثيل، وجاء لفظُها بصيغة الجمع للدّلالةِ على أنّ العرض قد وقع للسّماوات السّبع كلِّها.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

عرضُ الأمانةِ العظيمةِ شاملٌ للأرضِ بَلْهَ السّماء

عطفَ النّظمُ الجليلُ الأرضَ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ بواو العطف؛ للدّلالةِ على أنّ العرض قد وقع للأرض كما وقع للسّماوات، وتخصيصُ الأرض بالذِّكر وهي ضمْنَ السّماوات لِما في ذلك التّصريح من مزيد التّعظيم[2].

معنَى (أل) في (الأرض) ولطيفةُ إفرادِها:

الأرضُ بضخامتِها وعِظمِها عُرضت عليها الأمانةُ

عرّفَ النّظمُ الجليلُ (الأرض) بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ وهي هنا دالّةٌ على العهد الذّهنيِّ، فهي - وإن لم تُذكر في السّياق - حاضرةٌ في الأذهان، ودلّ التّعريفُ على أنّ المراد بالأرض عينُها لا سكّانُها[3]، ولكونها مُرادةً عينًا وذاتًا وأنّها المعهودةُ في الأذهان جاء الخطاب بصيغة الإفراد.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾:

سياقُ التّعظيمِ يقتضي تقديمَ الأعظمِ منَ المذكورات

قدّم النّظمُ الجليلُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على المذكورِ بعدها في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾؛ لأنّ السّماوات أعظمُ الموجودات[4]، وهي أعظمُ منَ الأرض وما فيها منَ الجبال، ولمّا كان السّياقُ لبيان عِظمِ الأمانة فإنّه يُقدّمُ الأعظمُ ليتناسق عِظمُ المضمون مع عِظمِ المذكور.

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 549.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 424.
(3) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 549.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 125.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلۡجِبَالِ﴾:

عرضُ الأمانةِ شملَ الجبالَ العظيمةَ

عطفَ النّظمُ الجليلُ (الجبالَ) على (الأرض) في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ للدّلالة على أنّ الخطاب قد وقع للمذكورات جميعًا، وأنّه قد خصَّ الجبالَ بخطاب التّكليف بالأمانة كما وقع للسّماوات والأرض، والعطف بين المذكورات لِما فيهنّ من عَظَمةٍ شاخصةٍ تلاحظُها الأبصار[1]، وفائدةُ العطف زيادةُ عِظم الأمانة.

معنَى (أل) في (الجبال) ولطيفةُ جمْعِها:

الجبالُ التي تراها العيونُ وتعهدُها العقولُ خوطبت بعرض الأمانة

عرّفَ النّظمُ الجليلُ (الجبالَ) بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ وهي هنا دالّةٌ على تعريف الجنس، فالمخاطَبُ بعرضِ الأمانة كلُّ الجبالِ لا جبلًا دونَ غيره، فالمُرادُ عمومُ الجبال، وفائدةُ التّعريف الدّلالةُ على أنّ المُرادَ أعيانُ الجبال وذاتُها[2]، والتّعبيرُ عنها بصيغة الجمع للدّلالةِ على شمول جميعِ الجبال، ففيه تأكيدٌ على العموم المدلولِ عليه بتعريف الجنس.

لطيفةُ ذِكْرِ (الجبال) خصوصًا:

حشدُ المخلوقاتِ العظيمةِ بالذّكر يُفصحُ عن عِظم الأمانة

خصَّ النّظمُ الجليلُ (الجبالَ) بالذّكر في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ وهي ضِمْن الأرض؛ وذلك لِما في الجبال من عظمةٍ ظاهرةٍ تشهدها الأبصارُ؛ بل إنّ الجبال هي أعظمُ ما على الأرض[3]، فذكرُ الجبالِ في سياق تعظيم الأمانة بعد ذِكْر السّماواتِ والأرضِ هو حشدٌ لأعظمِ المخلوقات، وأقوَى الأجرام التي تلاحظُها الأبصارُ، والمُرادُ من ذلك بيانُ غِلظِ التّكليفِ بالأمانة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 125.
(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم: 7/ 549.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 125.

معنَى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَبَيْنَ﴾:

عطفَ النّظمُ الجليلُ الإباءَ على العَرض في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ بالفاء العاطفة[1]، وذلك للدّلالةِ على أنّ الإباء عن حمْلِ الأمانة قد وقع عقبَ عرْضِها على وجه البِدارِ وبلا مُهلةٍ، تعبيرًا عن شدّة الإشفاق من تحمُّلِ الأمانة.

إباءُ حملِ الأمانةِ وقعَ على وجهِ المبادرةِ بلا تمهّلٍ

دلالةُ التّعبيرِ بالإباء على هيئة الماضي:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ الإباء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ لدلالته على الامتناع الشّديد، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناع إباءً[2]، فعبّر به للدّلالةِ على شدّة امتناعِهما عن قَبولِ حمْلِ الأمانة.

الامتناعُ الشّديدُ تعبيرٌ عن عِظمِ مكانةِ الأمانة

نكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ ﴿أَن يَحْمِلْنَهَا﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدرِ المُؤوّل ﴿أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ دون المصدرِ الصّريحِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ فلم يقل: (فأبَين حَمْلَها)؛ لِما في الفعل من دلالةٍ على التّجدُّد والحدوث، فالإباءُ عن حمْلِ الأمانة وقع لأنّ التّكليفَ بها يقتضي الإيفاءَ بها وتحمّلَها على وجه الاستمرار والدّوام، وهذا المعنى إنّما يدلّ عليه الفعلُ، وهو ما يتضمّنُه المصدرُ المؤوّلُ دون المصدر الصّريح، فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالمصدر المؤوّل فيه ترسيخٌ للامتناع عن حدث الحمل دون النَّظر في كيفيّاته؛ لأنّ المصدر المؤوّلَ ولا سيما مع (أنْ) يدلُّ على مجرّدِ معنى الحَدَث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي (أنْ) تحصينٌ منَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال[3].

تحمّلُ الأمانةِ يقتضي مزاولةَ التّكليفِ على وجهِ التّجدُّدِ والدّوام

دلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ الحملِ مضارعًا:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ عن قَبولِ الأمانة بالحمْلِ في قوله جلّ شأنُه:

ثقلُ التّكليفِ والأمانةِ شاقّان كثِقلٍ يُحملُ على الظّهور

(1) درويش، إعراب القرآن: 8/ 57.
(2) الرّاغب، المفردات: (أبى).
(3) السّامرائي، معاني النحو: 3/ 148.

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ للدّلالة على أنّ الأمانة ثقيلةٌ، فالتّكليفُ بالشّريعة ثقيلٌ، كالأثقال التي تُحملُ على الظّهر[1]، والمرادُ من ذلك بيانُ صعوبة أمرِها بجعْلِها جسمًا ثقيلًا يصعبُ حملُه[2]، فـ "الأمانةُ كأنّها راكبةٌ للمؤتمَن عليها وهو حاملُها، ألا تراهم يقولون: ركبتْه الدّيونُ ولي عليه حقٌّ، فإذا أدّاها لم تبق راكبةً له ولا هو حاملًا لها"[3]، والتّعبيرُ بذلك يدلُّ على وجوب الإيفاء بحقّها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ [الجمعة: 5]، أي: كُلّفوا أن يتحمّلوها؛ أي: يقوموا بحقّها، فلم يحملوها[4]، ومجيئُها مُضارعًا يدلُّ على تجدُّدِ الامتناع عنِ الحمل دلالةً على رسوخها قناعةً دائمةً.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾:

عطفَ النّظمُ الجليلُ الإشفاقَ على الإباء في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ بالواو العاطفة، للدّلالةِ على علّة الإباء، فالامتناعُ كان بسبب الخوف من عدم الإيفاءِ بالتّكليف بالأمانة.

علّةُ الامتناعِ عنِ الحمل الإشفاقُ من عاقبتِها

دلالةُ التّعبيرِ بالإشفاقِ:

أسندَ النّظمُ الجليلُ الإشفاقَ إلى الضّمير العائد على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ للدّلالةِ على أنّ هذه المخلوقاتِ العظيمةَ خشيت من حمل الأمانة، فهو تعبيرٌ عن عِظم تلكُمُ الأمانة، وغِلَظِها.

تعليقُ الخشيةِ بالسّماوات والأرض والجبال

نكتةُ تقييدِ الإشفاقِ بشبْهِ الجملة ﴿مِنْهَا﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (مِنْ) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وهي هنا للابتداء؛ فمنشأُ الخوف

ثِقلُ الأمانةِ منشأُ الخشيةِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (حمل).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 424.
(4) الرّاغب، المفردات: (حمل).

صادرٌ من ذات الأمانة لِما فيها من ثِقلٍ وكلفةٍ يجبُ أداؤها للّه تعالى الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، وتقييدُ الإشفاق بهذا القيد يدلُّ على أنّ الإشفاق لم يكن عامًّا بل كان مقيَّدًا بحمل الأمانة، فهو تعبيرٌ عن علوّ مكانةِ هذه الأمانة، وعِظَم شأنها.

براعةُ تقديمِ الإباءِ على الإشفاق:

ذِكرُ الإباء متبوعٌ ببيان سببِه

قدّمَ النّظمُ الجليلُ الإباءَ على الإشفاق في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ لأنّ الإشفاقَ هو العلّةُ في الإباء، فقدّمَه من باب تقديم المسبَّب على سببه[1]؛ فالمقصودُ منَ السّياق بيانُ أنّ تلك المخلوقاتِ قد أبتْ تَحمُّلَ الأمانة، فقدّمَ الأهمَّ، ثمّ أتبعه بالعلّة التي نشأ منها الإباء.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾:

قَبولُ الإنسان على ضعفه تحمُّلَ ما أبتْه المخلوقاتُ العظامُ

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾، بالواو العاطفة[2]، وفائدةُ العطف هنا إظهارُ ضخامة ما تكلّفَ به الإنسانُ من قَبولِه بالأمانة، فإنّ التّعقيب على إباءِ المخلوقات العظام حمْلَ هذه الأمانة بحمْلِ الإنسان لها يشيرُ إلى عِظم الأمانة، وعِظم قَبولِ التّكليف بها.

دلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ الحَمل ماضيًا:

حملُ الأمانة قبولٌ بوجوب التّكليفِ والقيامِ بتعاليمه

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالحَمْل في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ للدّلالة على أنّ تلك الأمانة واجبةٌ على الإنسان، فكأنّها راكبةٌ عليه، وهو مُلتزمٌ ببذل الجهد لحمْلِها والقيامِ بها، فحمْلُ الأمانة هو عبارةٌ عنِ التّكلّفِ بها والالتزام بما فيها[3]، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بالفعل الماضي للدّلالة على تحقُّق قَبولِ حمل الأمانة ووقوعِه.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 312.

(2) صافي، الجدول: 11/ 197.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾:

عـلّـةُ قَـبـولِ الأمـانـةِ عِـظَـمُ جـهـلِ الإنسان بـعـواقـبـهـا، ورسـوخُ ظلمِه لنفسه فيه

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ لأنّها مُستأنَفةٌ تعليليًّا، فهي جملةٌ اعتراضيّةٌ توسّطت بين جملة حمل الأمانة والجملة المبيّنة للغاية من ذلك وهي قولُه تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾[1]، أي أنّ التّعليل يقع على قَبول الإنسان لا على تحمّله إيّاها، فإنّه لجهله وظلمه لنفسه قبلَ التّكليفَ بالأمانة، ويجوز أن يكون الاستئناف بيانيًّا؛ لأنّ السّامعَ خبرَ أنّ الإنسان تحمّلَ الأمانة يترقّبُ معرفةَ ما كان من حُسْنِ قيام الإنسان بما حملَه وتحمّلَه"[2].

فائدةُ توكيدِ جملةِ الاعتراض:

اغـتـرارُ الإنسان بنفسه ظلمٌ لها يوردُه المهالكَ

جاءت جملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ مؤكَّدةً بـ(إنّ) وبكونِها اسميّةً تقويةً لمضمونها، وهو ظلمُ الإنسان لنفسه وجهلُه بعاقبة ما قَبِل به، وما أحسنَ ما قال البقاعيّ: "ولمّا كان الإنسان - لِما له بنفسه منَ الأُنس، وفي صفاته منَ العشق، وله منَ العقل والفهم - يظنّ أنّه لا نقصَ فيه؛ علّل ذلك بقوله مُؤكِّدًا: ﴿إِنَّهُۥ﴾"[3].

دلالةُ الإخبارِ بالكونِ الماضي:

الظّلمُ والجهلُ خـصـلـتـان متـأصّـلـتـان في الإنسان

أخبرَ النّظمُ الجليلُ عن ظلم الإنسان وجهلِه بفعل الكونِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إشارةً إلى أنّ من شأن الإنسان الثّابتِ فيه اتّصافه بالظّلم والجهل[4]، فهما صفتان أصيلتان فيه؛ وذلك لأنّهما وصفان غالبان على جنس الإنسان[5]، إلّا مَن وفّقه الله تعالى ليكونَ من أهل الخير والصّلاح فيكونَ بعيدًا عن تلكم الصّفتين.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 129.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 425.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 494.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 130.

لطيفةُ صوْغِ الظلم على وزن (فعول):

العُدولُ عن الحقّ صفةٌ شديدةُ الرّسوخ في الإنسان

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالظّلم في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ للدّلالةِ على أنّ الإنسان في غالب أمره يضعُ الأشياءَ في غير موضعها؛ لأنّ الظلم هو "وضعُ الشّيءِ في غير موضعه المختصِّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه"[1]، فلمّا قصّر الإنسانُ في الوفاء بحقِّ ما تحمّله وصفُه بالظّلم، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة المبالغة على وزن (فعول) للمبالغة في صفة الظّلم في الإنسان[2].

لطيفةُ صوْغِ الجهل على وزن (فعول):

انتفاءُ العلمِ بعاقبة الأمورِ وصفٌ مُتمكِّنٌ في الإنسان

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالجهل صفةً للإنسان في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ للدّلالةِ على انتفاء تدبّرِه بعواقب الأمور، وانتفاءِ علْمِه بعاقبة ما يُقدمُ عليه لِما ركّبَ فيه من حبّ الشّهوات[3]؛ لأنّ الجهل هو "فعلُ الشّيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل، سواءٌ اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، كمَن يتركُ الصّلاةَ متعمِّدًا"[4]، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة المبالغة على وزن (فعول) للمبالغة في صفة الجهل في الإنسان بكونِه يجهلُ في ما يتعلّقُ به منَ المكروه، والمضرّة[5]، فهو كثير الجهل بليغُه.

نكتةُ تقديمِ الظّلم على الجهل:

الظّلمُ مقصدُ السّياق؛ فذُكر أوّلًا وأُتبع بسببِه

قدّمَ النّظمُ الجليلُ صفةَ الظّلم على صفة الجهل في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ لأنّ الجهل هو سببُ الظّلم، فجهلُه يغلب حِلْمَه فيوقعُه في الظّلم[6]، فلمّا ذكرَ الظّلمَ أتبعَه بالصّفة

(1) الرّاغب، المفردات: (ظلم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 130.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 46.
(4) الرّاغب، المفردات: (جهل).
(5) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 550.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.

الأخرى التي هي سببٌ له، فكأنّه علّل سببَ ظلمه، وهو كونُه جهولًا، وإنّما قدّم النّتيجةَ على السّبب؛ لأنّ الأصل في السّياق الحديثُ عن ظلم الإنسان لنفسه بتحمّل الأمانة، وهذا الظّلم هو نتيجةٌ لجهله.

بلاغةُ تغليبِ صفتَي الظّلم والجهل دون غيرِهما:

الظّلمُ والجهلُ من نوازع الشّرّ التي تغلبُ على البشر

غلّبَ النّظمُ الجليلُ صفةَ الظّلم والجهل على الإنسان في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، فليس كلُّهم أهلَ ظلمٍ وجهلٍ؛ فإنّ "الإسناد إلى الجنس لا يلزمُ منه أن يكون كلُّ فرد منه كذلك، فهو هنا باعتبار الأغلب"[1]، فإعمامُ الوصفِ من باب التّغليب؛ لأنّ تلك الأوصاف ظاهرةٌ في أغلب الأفراد من بني آدم، وفي مقام التّرهيب والتّحذير يُراعى الغالبُ منَ الأوصاف[2].

معنَى (اللّام) في قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾:

مآلُ خيانةِ الأمانة عذابٌ عظيمٌ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وهي هنا لامُ العاقبة، والتّعليلُ فيها مجازيٌّ[3]، فعلّل بقَوْله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ قَولَه جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ﴾، وصحّ التّعليلُ؛ لأنّه يترتّبُ عليه، من حَيثُ إنّ العذاب هو نتيجةٌ لخيانة الأمانة، وإليه يؤولُ الحملُ[4]، وقد أجاد أبو السّعود إذ قال: "فإنَّ التَّعذيبَ وإنْ لم يكُن غرضًا له منَ الحملِ لكنْ لمّا ترتَّبَ عليه بالنسبةِ إلى بعضِ أفرادِه ترتُّبَ الأغراضِ على الأفعالِ المُعلَّلةِ بها أبرزَ في معرضِ الغرضِ، أي: كان عاقبةُ حملِ الإنسانِ لها أنْ يعذّبَ اللّه تعالى هؤلاءِ من أفرادِه لخيانتِهم الأمانةَ وخروجِهم عنِ الطّاعةِ بالكُلّية"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 425.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 130.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 187.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 492.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.

نكتةُ الالتفاتِ منَ التّكلُّم إلى الغيبة:

العذابُ الصّادرُ منَ الله تعالى أبلغُ العذاب وأشدُّه

التفتَ النّظمُ الجليلُ بالخطابِ من صيغة المُتكلّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾ إلى الخطاب بصيغة الغيبة بإظهار الاسمِ الجليلِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ وذلك لِما في إظهار الاسم الأعظم بلفظ الجلالة من تربيةٍ للمهابة، مع ما في التّنويع في المقال بين الإظهار والإضمار من جلالٍ وجمالٍ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ التّعذيبِ مضارعًا:

إيجاعُ الكافرين الشّديدُ في النّار دائمٌ مُتجدّدٌ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ العذاب في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ للدّلالةِ على شدّة تعذيبِهم؛ فالعذابُ هو الإيجاع الشّديد[2]، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على دوام العذاب واستمرارِه، وتجدُّدِه عليهم.

دلالةُ إسنادِ التّعذيبِ إلى الاسمِ الجليلِ:

صدورُ العذابِ منَ الله العظيم شديدٌ أليمٌ

أسندَ النّظمُ الجليلُ العذابَ إلى لفظ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ تفخيمًا وتغليظًا لشأن العذاب؛ فإنّ الله تعالى هو بجلاله وعظمته يُعذِّبُ المذكورين.

دلالةُ التّعبيرِ بمُفردةِ النّفاقِ على هيئة اسمِ الفاعلِ:

خداعُ النّاس والكذبُ والزّورُ صفةٌ عريقةٌ في أهل النّفاق

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ النّفاق في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ للدّلالةِ على فئة منَ النّاس يُظهرون خلافَ ما يُعلنون، فهم يُظهرون بذلَ الأمانة كذبًا وزورًا، وآثرَ النّظمُ التّعبيرَ بصيغة اسمِ الفاعل للدّلالة على أنّهم متّصفون بصفة النّفاق على وجه الثّبوتِ والعراقةِ[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.
(2) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾:

الـرّجـلُ هو المُسبِّبُ لنفاقِ أهلِه باعتبار الأغلب

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾ اعتبارًا بأنّ الولاية والقوامة للرّجل، فيكون في الغالب هو المُسبّبَ لنفاق أهله، والنّساءُ في حكم الأغلب تبعٌ للرّجل، فهو الأجدرُ بالتّقديم.

توجيهُ العطفِ بين صفاتِ النّفاق والشّرك بـ(الواو):

العذابُ شاملٌ لكلّ أهلِ النّفاق والشّرك

عطفَ النّظمُ الجليلُ بين صفات النّفاق والشّرك في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ للدّلالةِ على أنّ المذكورين جميعًا مُدرجون تحت حُكمِ العذاب، وأنّ النّار هي موئلُهم جميعًا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: 140].

دلالةُ التّعبيرِ بمُفردةِ الإشراك على هيئة اسمِ الفاعل:

إثباتُ شريكٍ لله تعالى وصفٌ راسخٌ في المشركين

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ الشّرك في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ للدّلالةِ على أعظم الذّنوب، وهو الشِّرْكُ العظيم، وهو: إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، وذلك أعظمُ كفرٍ[1]، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة اسمِ الفاعل للدّلالةِ على أنّهم عريقون في الشّرك، متّصفون به على وجه الثّبوت والدّوام[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾:

إشراكُ الرّجالِ سببٌ في إشراك النّساء من أهلهم

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ تبعًا لمكانة قِوامةِ الرّجل، فالرّجل في الغالب هو المُسبّبُ لشرك نساءِ بيته، والنّساءُ في حكم الأغلب تبعٌ للرّجل، فهو الأجدرُ بالتّقديم.

(1) الرّاغب، المفردات: (شرك).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.

دلالةُ تقديمِ صفةِ النّفاقِ على الإشراك:

المنافقُ أسوأُ النّاس؛ فهو كافرٌ مُخادِعٌ

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذِكرَ أهلِ النّفاق على أهل الشّرك في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾؛ لأنّ أهل النّفاق أجدرُ النّاس بالعذاب؛ فهم يُظهرون بذلَ الأمانة كذبًا وزورًا، والمشركون يصارحون بخيانتها[1]، فالمنافقون أسوأُ الصّنفين؛ لأنّهم مع كفرهم فهم يخادعون الله والذين آمنوا.

معنَى (الواو) في صدرِ جملةِ التّوبة:

الإحسانُ على المؤمنين زيادةٌ في عذاب أهلِ النّفاق والشّرك

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ للجمع بين عذابَيْن على المنافقين والمشركين، فلمّا "كانَ كَرامةُ العدوِّ غَيْظَ العدوِّ وموجبَ شَماتتِه وكانتِ التّوبةُ على المؤمنين إرغامًا للكافرين، عَطَفَ ﴿وَيَتُوبَ﴾ على ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ ليجمَعَ لهم بينَ العذابَيْن"[2].

دلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ التّوبةِ على هيئة المضارع:

توبةُ الله على عباده قَبولُ توبتِهم والعفوُ عنهم

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ التّوبة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ليدلَّ على أنّ الله تعالى يقبلُ توبةَ عباده المؤمنين، فإنّ التّوبة منَ الله تعالى تعني قَبولَها[3]، وقد آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عن ذلك بالفعل المضارع إشارةً إلى أنّه تعالى يقبلُ توبةَ عباده على الدّوام والاستمرار.

دلالةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ في جملة التّوبة:

لطفُ الله بعبادِه وعنايتُه بهم من تمام إكرامِه

أظهرَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فوضع الظّاهرَ موضعَ المُضمَر، فلم يقل: (ويتوب على المؤمنين)؛ لِما في إظهار اسمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 492.
(3) الرّاغب، المفردات: (توب).

الجلالة من دلالة على كمال العنايةِ بأمر المؤمنين، مع ما فيه من توفيّةٍ لمقام الوعد حقَّه منَ الإكرام[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ الإيمان وصوْغِه اسمَ فاعلٍ:

التّصديقُ والتّسليمُ صفةٌ راسخةٌ في المؤمنين

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ الإيمان في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وهو يدلُّ على الإذعان للحقّ والتّصديق به، وذلك باجتماع ثلاثةِ أشياء: تحقيقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللّسان، وعملٌ بحسب ذلك بالجوارح، ويدلّ الإيمانُ أيضًا على الشّريعة التي جاء بها النّبيُّ ﷺ، ويوصف به كلُّ مَن دخل في شريعته مُقرًّا باللّه وبنُبوَّة رسولِه الخاتم[2]، وقد آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الفاعل عن ذلك إشارةً إلى أنّهم عريقون في وصف الإيمان، وأنّهم قد ثبتوا عليه حتّى بلوغِهم الموتَ[3].

وجهُ تقديمِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾:

تقديمُ مَن له القِوامةُ في الجزاء اعتبارًا بالأغلب

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لما للرّجل من قِوامةٍ على المرأة، فيكون أغلبُ الأوصاف منَ الإيمان والكفر والنّفاق والشّرك تصلُ إلى النّساء بسبب الرّجل على وجه الأغلبيّة.

براعةُ تأخيرِ ذِكْرِ أهلِ الإيمان عن أهل الشّرك والنّفاق:

كثرةُ أهلِ النّفاق والشّرك من أماراتِ الظّلمِ والجهلِ

أخّرَ النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ أهلِ الإيمان عن ذكر أهل النّفاق والشّرك في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إشارةً إلى أنّ المُتقدِّمين في الذِّكر أكثرُ عددًا، فخونةُ الأمانة أكثرُ من حافظيها[4]،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 119.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 427.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.

كما أنّ الختم بالتّوبة يشيرُ إلى أنّ بابها مفتوحٌ، ممّا يحثّ السّامعين على الطّاعة وحفظ الأمانة.

بلاغةُ الاحتباكِ في الآية:

حـالُ المؤمنين يومَ القيامة توبةٌ ونعيمٌ، وحالُ المنافقين عذابٌ أليمٌ

أوجزَ النّظمُ الجليلُ عن طريق الاحتباك في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فذكرَ "العذاب أوّلًا دليلًا على النّعيم ثانيًا، والتّوبة ثانيًا دليلًا على منعها أوّلًا"[1]، وتقديرُ الكلام: ليعذّب المنافقين ويُنعمَ على المؤمنين، ويتوبَ على المؤمنين دون المنافقين، وهذا نظمٌ بديعٌ لِما فيه من براعة الإيجاز بحبك العبارة.

معنَى (الواو) في مطلع جملةِ الفاصلةِ:

علّةُ قَبولِه توبةَ عبـاده أنّـه لم يزل غفورًا رحيمًا

افتتحَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ بالواو الاستئنافيّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لأنّ الجملة مُستأنَفةٌ استئنافًا تعليليًّا، سيقت لبيان علّةِ قَبولِه توبتَهم[2]، وهو تبشيرٌ للمؤمنين بأنّ اللّه تعالى يغفرُ لهم ويعاملُهم بما تقتضيه الرّحمة[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالكونِ الماضي:

رسـوخُ صفاتِ الـغـفـران والرّحمة بُشرى لعباده بالقَبولِ والرّضى

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بفعلِ الكون في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لبيان ثبوت صفةِ الرّحمة والمغفرة وتأكيدِ وقوعها، وقد آثر التّعبيرُ عن ذلك بالفعل الماضي تحقيقًا لرسوخ الوصف، والمرادُ من ذلك تقويةُ بشارةِ المؤمنين بتقوية ثبوتِ الصّفتين.

نكتةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ في جملةِ الفاصلةِ:

أظهرَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ دون أن يقول: (وهو الغفور الرحيم)؛ فوُضع الاسمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 427.
(2) المراغيّ، تفسير المراغي: 22/ 47، وصافي، الجدول: 11/ 198.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 132.

الظّاهرُ موضعَ المُضمَرِ إظهارًا لزيادة العناية بعباده المؤمنين[1]، ولا سيّما في مواطنِ تنزُّلِ الرّحمات، والمنّ والمكرمات.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ المغفرةِ على صيغة (فعول):

يَمحو الغفورُ الرّحيمُ ذنوبَ عبادِه على كثرتها

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ المغفرة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ للدّلالةِ على أنّه تعالى يمحو ذنوبَ عباده ويسترُها عليهم، وجاء التّعبيرُ بصيغة المبالغة لبيان كثرةِ المغفرة؛ فهو تعالى يغفر الذّنوبَ الفعليّةَ والقوليّةَ والإمكانيّةَ، يغفرها عينًا، وما يلحقُها من أثر[2]، وصيغةُ المبالغة في صفاته تعالى تدلُّ على كثرة المتعلّق، فلمّا كثرت ذنوبُ العباد وكثرت مغفرتُه تعالى لهم؛ ناسب التّعبيرُ عن تلك الكثرة بصيغة المبالغة.

دلالةُ الإخبارِ بمُفردةِ الرّحمةِ على صيغة (فعيل):

رحمتُه تعالى إحسانٌ على عباده ومحضُ تفضّلٍ منه

وصفَ النّظمُ الجليلُ اللّه تعالى بكونه رحيمًا في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهذه الصّفة عند إسنادها الى اللّه تعالى تدلُّ على الإحسان المجرّد دون الرّقّة، ورحمته تعالى إنعام وإفضال[3]، فهو إشارةٌ إلى أنّ مغفرته تعالى محضُ إحسانٍ منه، وقد جاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة (فعيل) للمبالغة في قوّة صفته تعالى؛ "حيثُ تابَ عليهم وغفرَ لهمُ فرَطاتِهم وأثابَ بالفوزِ على طاعاتِهم"[4].

وجهُ مناسبةِ الرّحمةِ للمغفرة:

جمعَ النّظمُ الجليلُ بين صفتَي الرّحمة والمغفرة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ للدّلالةِ على أنّه تعالى يقبلُ توبةَ عباده رحمةً منه وتفضُّلًا[5]، وأنّ مغفرته كائنةٌ بسبب رحمته تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 131.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 427.
(3) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 119.
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 167.

نكتةُ تقديمِ المغفرةِ على الرحمة:

بعدَ المنّ بالمغفرة تحلُّ عليهم سَعةُ الرّحمة

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ المغفرة على الرّحمة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ للدّلالةِ على أنّه تعالى يُكرمُهم برحمته بأنواع الإكرام بعد أن رجعوا إلى طاعته بتوبتهم عنِ الإجرام[1]، كما أنّ تقديم المغفرة أنسبُ للسّياق لِما سبق من ذكر توبتِه تعالى عليهم، وأخّر الرّحمةَ لكونها سببَ تلك المغفرة، فهو من باب ذكر السّبب ثمّ إلحاقِه بمسبِّبه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 427، والنخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 167.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»